

رعاية المسنين في منظور القرآن والسنة دراسة معاصرة
Attending the Ageing Population from the Qur'an and Sunnah Perspective

Raudlotul Firdaus Fatah Yasin (Corresponding Author)

Department of Qur'an and Sunnah Studies, Kulliyah of Islamic Revealed Knowledge and Human Sciences, and Deputy Director of Sultan Ahmad Shah Mosque, International Islamic University Malaysia

Tel: +60163340077 E-mail: rawda@iium.edu.my

Ali Asaa Ali Mubaarak

Department of Qur'an and Sunnah Studies, Kulliyah of Islamic Revealed Knowledge and Human Sciences, International Islamic University Malaysia and Member of KhayriyyahTahfiz Institute Tanzania

E-mail: asaali170@gmail.com

Mohd. Shah Jani

Head of Department, Qur'an and Sunnah Studies, Kulliyah of Islamic Revealed Knowledge and Human Sciences, International Islamic University Malaysia

Tel: +60361965330 E-mail: shahjani@iium.edu.my

in the Qur'an and Sunnah.

ملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة ومناقشة مدى اهتمام الإسلام تحت مصدريه الأساسيين القرآن والسنة برعاية المسنين. إن المسنين في عصرنا الحاضر يعانون بمشاكل كثيرة منها: مشكلة عقديّة، واجتماعية، وتربوية، واقتصادية، وذلك نتيجة لسوء تعامل بعض الأسر والمجتمعات المعاصرة مع هذه الفئة الكريمة. فبالبحث يسعى إلى معرفة وكشف جذور هذه المشكلة، ويقدم لها الحلول المناسبة في منظور القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وذلك ببيان المبادئ والأسس التي قررها الإسلام في رعاية المسنين، والتي لا بد لمجتمعاتنا المعاصرة من توظيفها للقضاء على مشاكل المسنين في العالم.

The ageing population nowadays is facing number of human rights problems including: problem of 'Aqīdah (religious belief), social, educational and economic as a result of the mistreatments mainly from family members of different communities towards this vulnerable group. The research paper seeks to find out the backgrounds of these problems, and to provide the appropriate solutions from the Quran and Sunnah perspectives. This will be done by explaining the Sharī'ah principles and ethical values prescribed by Islam in attending the welfare of the ageing population, and thus suggesting solutions that can be put into practice by our community order to reduce the problems facing the ageing population.

الكلمات المفتاحية: رعاية المسنين، منظور القرآن والسنة النبوية

Keywords: attending the welfare, ageing population, Qur'an and Sunnah

Abstract

This research paper is aimed at studying and discussion on the extent of interest in Islam to looking after the ageing population as enshrined

المقدمة:

الحمد لله القائل في محكم تنزيهه: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا

شُيُوعًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَقَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ([غافر:67]، والصلاة والسلام على من قال: «رغم أنفه، رغم أنفه، رغم أنفه، قيل من يا رسول الله؟ قال: من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة» (Sahih Muslim).

وبعد!

إن المسنين في منظور القرآن والسنة لهم رعاية وعناية خاصة، ولكن المتبع للآيات القرآنية لا يجد لكلمة المسنين ورودا في القرآن الكريم، وإنما يجد مرادفات لهذه الكلمة صراحة أم ضمنا، ومن مرادفات كلمة المسن في القرآن الكريم ما يأتي:

1) الشيخ، وقد تكرر هذا المصطلح أربع مرات في القرآن الكريم قال تعالى: (قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) (Al-Quran 11:72). فالشيخ في الآية الكريمة منصوبا على الحال. وقيل كان ابن مائة أو مائة وعشرين، وهي ابنة تسعين (Said Ka' bash, 2013). وهذا بلا أدنى شك يدل على أنهما كانا من المسنين. وقال تعالى: (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) (Al-Quran 12:78). وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود بالشيخ الكبير في الآية الكريمة هو الكبر في المقام، ومنهم من يرى أنه الكبر في السن (MutawalliSha'rawi, n.d.). ويرى الباحثون أنه يمكن الجمع بين الاحتمالين، لأن نبي الله يعقوب U في ذاك الزمان كان رجلا مسنا، وعنده مكانة رفيعة في مجتمعه. وقال تعالى: (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْتَفُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ

الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) (Al-Quran 28:23) أي: وأبونا شيخ كبير هرم لا يستطيع الرعي والسقي بنفسه (Wahbahal-Zuhaili, 1418H). وقوله تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكُونُوا شُيُوعًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَقَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (Al-Quran 40:67) الآية الكريمة تتحدث عن أطوار خلق الإنسان وهي طور الطفولة، وطور الشباب، وطور الشيخوخة وهي الكبر في السن.

2) الكبر، وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم ستة مرات، وكلها تدل على مرحلة التقدم في السن، وهذه الآيات كالاتي: قال تعالى: (أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) (Al-Quran 2:266). وقوله تعالى: (قَالَ رَبِّ أُنَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) (Al-Quran 3:40). وقوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ) (Al-Quran 14:39) وقوله تعالى: (قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونِ) (Al-Quran 15:54) وقوله تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) (Al-Quran 17:23) وقوله تعالى: (قَالَ رَبِّ أُنَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا) (Al-Quran 19:8). فهذه الآيات الكريمة كلها وردت فيها كلمة الكبر بمعنى كبر السن، ولا نعرف من أهل التفسير من قال بخلاف ذلك.

3) العجوز، هذه الكلمة وردت مرتين في القرآن الكريم بمعنى المسنة، منها قوله تعالى: (قَالَتْ يَا وَيْلَتَى

أَلَدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (Al-Quran 11:72) أي: قالت سارة متعجبة: يا لهفي ويا عجيبي، أيأتيني ولد وأنا امرأة مسنة عقيم، وهذا زوجي شيخ كبير هرم، فكيف يأتينا الولد؟ (Ali al-Sabuni, 2000) وقوله تعالى: (فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَوةٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ) (Al-Quran 51:29).

4- أرذل العمر، وهذا المصطلح ورد ذكره في القرآن الكريم مرتين ويدل على كبر السن، قال تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) (Al-Quran 16:70) أي: ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم، وهو الضعف في الحلقة (Ibn Kathir, 2000). وقوله تعالى: (يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَعَوِيرٍ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُسَوِّفُ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ) (Al-Quran 22:5) أي: ومنكم من يعيش إلى أرذل العمر أي: أحسه وأدونه، فيصير من بعد علمه بالأشياء وفهمه لها، لا علم له ولا فهم، شأنه في ذلك شأن الأطفال (Sayyid, 1998). فهذه هي المصطلحات القرآنية التي تدل على المسنين صراحة.

وأما المصطلحات التي تدل على هذا المعنى ولكنها غير صراحة بل تشتمل على سمة من سمات المسنين فهي كالآتي:

1- وهن العظم، ولم يرد هذا المصطلح إلا مرة واحدة في القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا) (Al-Quran 19:4) والوهن: الضعف، وهن العظم يستتبع وهن الجسم كله؛

لأنه هو المادة الصلبة التي يقوم عليها بناء الجسم، فإذا أصابه الوهن فغيره من اللحم والعصب والدم من باب أولى (Said Ka'bash, 2013). ووهن العظم لا يلزم أن يكون الرجل شيخا، وإنما يمكن أن يصاب عظام الإنسان بالوهن بسبب مرض كشلل الجسم أو غيره كحادثة، فدل على أن وهن العظم يشمل كبر السن وغيره. والمراد به في الآية الكريمة كبر السن، وذلك بقرينة ذكرها نبي الله زكريا بقوله: (وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ).

2- الشيبية، قال تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ) (Al-Quran 30:54) والشيب علامة ظاهرة لوهن الجسم والشيوخوخة ولكن لا يلزم ذلك، فإنه من الممكن أن يشيب المرء وهو في عنفوة شبابه. والمتفق عليه أن المراد باشتعال الرأس شيبا في الآية الكريمة يدل على تقدم السن، وذلك بالقرينة التي ذكرناها آنفا.

الضعف، وجاءت هذه الكلمة في القرآن الكريم مرتين، مرة في سورة الأنفال 66، قال تعالى: (الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) (Al-Quran 8:66) ففي هذه الآية الكريمة كلمة الضعف لا تدل على كبر السن، بل المراد به نقص في صبر المؤمنين، كما ذهب القرطبي في تفسيره (Al-Qurtubi, 1964). وهذا المعنى يؤيده صدر الآية الكريمة وعجزها حيث يقول الله في صدرها: (الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ

وَأَنَّ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَعْلَبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ... (ويقول في عجزها:) وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ. قال الإمام الرازي: "إنه تعالى قال في الآية الأولى: (إِنَّ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَعْلَبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنَّ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَعْلَبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) (Al-Quran 8:65). فهب أنا نحمل هذا الخبر على الأمر إلا أن هذا الأمر كان مشروطا بكون العشرين قادرين على الصبر في مقابلة المائتين، وقوله: (الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا) يدل على أن ذلك الشرط غير حاصل في حق هؤلاء، فصار حاصل الكلام أن الآية الأولى دلت على ثبوت حكم عند شرط مخصوص، وهذه الآية دلت على أن ذلك الشرط مفقود في حق هذه الجماعة» (Al-Razi, 1420H). والمراد بالشرط المفقود هو الصبر، فدل على أن المقصود بالضعف في الآية نقص في الصبر وليس كبر السن. ووردت كلمة الضعف في قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ) (Al-Quran 30:54) فهنا كلمة الضعف دالة على كبر السن. قال طنطاوي: «(ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً) أي: ثم جعل من بعد مرحلة القوة، مرحلة ضعف آخر، تعقبه مرحلة أخرى أشد منه في الضعف، وهي مرحلة الشيب والهزم والشيخوخة التي هي أرذل العمر، وفيها يصير الإنسان أشبه ما يكون بالطفل الصغير في كثير من أحواله» (Tantawi, 1998). فهذه مصطلحات قرآنية التي تشير إلى الشيخوخة وكبر السن بدون أن تصرح بذلك.

وأما السنة النبوية المطهرة فقد حفلت كتبها بالنصوص

الكثيرة المتعلقة برعاية المسنين، وبأسلوب مختلفة، وكلها تبين مدى اهتمام الشريعة الإسلامية بهذه الفئة الكريمة، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر النصوص الآتية.

1- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوقِرْ كَبِيرَنَا» (Sahih al-Bukhari).

2- وَعَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَمْرِي جَبْرِيْلُ أَنْ أُقَدِّمَ الْأَكْبَرَ» (Al-Baghdadi: 1997).

3- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ t لما رآه يأتي بأبيه يوم الفتح: «هَلَّا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيَهُ؟». قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ أَحَقُّ أَنْ يَمْشِيَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَمْشِيَ إِلَيْهِ. فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ مَسَحَ صَدْرَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «أَسْلِمَ» فَأَسْلَمَ (Sulayman al-Haythami, 1992).

4- وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمَقْسُطِ» (Sunan Abu Dawud). قال صاحب عون المعبود: "«إِنْ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ»، أي: "تعظيم الشيخ الكبير في الإسلام بتوقيره في المجالس والرفق به والشفقة عليه ونحو ذلك، كل هذا من كمال تعظيم الله لحرمة عند الله" (Ali bin Haydar, 1415H).

والتأمل لهذه المجموعة من الأحاديث النبوية يجد أن منهجها منهج القرآن الكريم، إذ ذكرت المصطلحات التي ذكرها القرآن الكريم كالشيخ والكبير، أو استعملت مشتقاته، كما أن الأحاديث ذكرت سمة من سمات كبر السن وهي الشيبية.

أسس رعاية المسنين في القرآن والسنة
رعاية المسنين على أساس إنسانيتهم

لقد حرص الإسلام أشد الحرص على العناية بالفرد داخل المجتمع، سواء جنيناً كان أو طفلاً، أو شاباً، أو رجلاً، أو شيخاً مسناً، فالإنسان محترم ومكرم في جميع مراحل حياته، وذلك لقيمه الإنسانية، قال تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرْ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) (Al-Quran 17:70).

فهذا التكرم الإلهي للإنسان عام لكل من يحمل صفة الإنسانية مسلماً كان أو كافراً، وهذا هو تفسير رسول الله ﷺ للآية الكريمة حيث روى البخاري في صحيحه، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: مر بنا جنازة، فقام لها النبي ﷺ وقمنا به، فقلنا: يا رسول الله إنها جنازة يهودي، قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْجِنَازَةَ، فُؤُومُوا» (Sahih al-Bukhari).

وفي رواية أخرى كان سهل بن حنيف، وقيس بن سعد قاعدين بالقادسية، فمروا عليهما بجنازة، فقاما، فقيل لهما إنها من أهل الأرض أي من أهل الذمة، فقالا: إن النبي ﷺ مرت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: «أَلَيْسَتْ تُفْسَأُ» (Sahih al-Bukhari). هذا يدل على تكريم الإنسان مسلماً كان أو كافراً حياً أو ميتاً.

رعاية المسنين على أساس بر الوالدين

ومن أساس التعامل مع المسنين في منظور الإسلام بر الوالدين، لقد أمر الإسلام أتباعه بحسن المعاملة مع الوالدين، بل جمع الله تعالى حقه وحق الوالدين؛ لينبه على عظيم حقهما على الولد، فإنهما تعبوا وشقياً من أجل سعادته وراحته، فعليه أن يقابل الجميل بالجميل، والإحسان بالإحسان، لا سيما عند بلوغهما الكبر والشيخوخة، فإن رعايتهما في

هذا الوقت ألزم وأوجب، والتعبير الإلهي يوحى بالشفقة والحنان الزائدين عند هذه المرحلة، قال تعالى: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا. رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي ثُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا) (Al-Quran 17:23-25).

قال القرطبي: «(إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا) خص حالة الكبر لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى بره لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر، فألزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل، لأنهما في هذه الحالة قد صارا كلا عليه، فيحتاجان أن يلي منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يلياً منه، فلذلك خص هذه الحالة بالذكر. وأيضاً فطول المكث للمرء يوجب الاستئثار للمرء عادة، ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه وتنتفخ لهما أوداجه، ويستطيل عليهما بدالة البنوة وقلة الديانة، وأقل المكره ما يظهره بتنفسه المتردد من الضجر. وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة، وهو السالم عن كل عيب فقال: (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا)» (Al-Qurtubi, 1964).

من خلال ما تقدم من الآيات الكريمة يتبين مدى اهتمام الإسلام برعاية الوالدين وخاصة عند بلوغهما مرحلة الكبر والشيخوخة، ففي هذه المرحلة نرى أن الآيات تؤكد على حسن المعاملة معهما لأنهما يحتاجان إلى حماية ورعاية فائقة. فنهت الآيات عن أن يقول الولد لوالديه أقل كلمة تظهر الضجر ككلمة أف، ونهت عن زجرهما

باغلاظ فيما لا يعجبه منهما.

رعاية المسنين على أساس خاص بهم وهو توقييرهم واحترامهم

لقد حث الإسلام على توقيير واحترام المسنين، واستعمالاً ساليب كثيرة في الحث على هذا الأمر، تارة يلتجئ إلى أسلوب التشجيع كما في قوله I: «مَا أَكْرَمَ شَابٌ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ» (Sunan Tirmizi). هذا الحديث الشريف يحث شبابا في إكرام وتوقيير المسنين ويضمن لهم من يفعل ذلك عند بلوغهم لهذه المرحلة الصعبة. وقال I: «إِنَّ مِنْ إِكْرَامِ جَلَالِ اللَّهِ إِكْرَامُ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَالْإِمَامِ الْعَادِلِ وَحَامِلِ الْقُرْآنِ، لَا يَغْلُوا فِيهِ وَلَا يَجْفُوا عَنْهُ» (Al-Bayhaqi, 2003). يشجع الرسول الكريم I الشباب في هذا الحديث على إكرام واحترام المسنين، وجعل ذلك صورة من صور إجلال الله تعالى، وما ذلك إلا لإيقاظ هم الشباب في التعامل مع المسنين.

وفي روايات أخرى نجد أن الرسول الكريم I استعمل أسلوب التحذير والتنفير عن معاملة السيئة مع المسنين كقوله: «مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرَنَا فَلَيْسَ مِنَّا» (Sunan Abu Dawud). فكلمة ليس منا تفيد التحذير.

والملاحظ من هذه الأحاديث النبوية أن الإسلام منح الشيوخ المسنين غاية الاحترام والتوقيير، وكل ذلك يبين مدى اهتمام الإسلام لرعاية هذه الفئة.

الإسلام ينهي عن قتل المسنين في الحرب ما أجمل الإسلام وأعظمه في رعاية المسنين! حيث طلب من المسلمين حسن التعامل معهم في السلم، وحرمة قتلهم في الحرب إلا إذا اعتدوا، ثبت أن النبي I كان إذا بعث جيشا أو سرية دعا صاحبهم، فأمره بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرا، ثم

قال: «اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا ولا شيخا كبيرا...» (Al-Tabrani, n.d).

وسار على هذا المنهج خلفاؤه الراشدون، فهذا أبو بكر الصديق t يوصي يزيد بن أبي سفيان حين بعثه إلى الشام قائلا: «لَا تَقْتُلُوا صَبِيًّا، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا شَيْخًا كَبِيرًا...» (Sunan al-Bayhaqi). هذه هي معاملة الإسلام للمسنين في الحرب إنه يحرم قتلهم.

مسؤولية رعاية المسنين في الإسلام

باستقراء وتتبع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية يمكننا تقسيم مسؤولية رعاية المسنين إلى ثلاثة أقسام، وهي كالآتي:

أولا: عند أولاد المسنين

إن الإسلام جعل مسؤولية رعاية المسنين في عاتق أولادهم أولا، وكما أن رعايتهم تكون مسؤولية للدولة وللمجتمع. أما بالنسبة لأولادهم فالأمر واضح لأن الولد هو المطالب برعاية والده عقلا وشرعا، فالوالدان قاما بيرية ابنيهما وهو ضعيف فقاموا بالتضحية بكل شيء حتى بالذات، وبذلا أقصى جهد في صونه حتى أصبح رجلا سويا، وهما اليوم في مثله من الضعف والحاجة إلى الرعاية والحنان. فكان من الوفاء والمروءة رد شيء من الجميل والمعروف لهما، إما بالمعاملة الحسنة والأخلاق المرضية، وإما بالإمداد المادي إذا كانا بحاجة وكان الولد موسرا، فأمر الله الولد أن يرحم والديه فقال له: (إِذَا يَبْتَغَىٰ عِنْدَكَ الْكَبِيرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الدُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) (Al-Quran)

24-23:17).

أي إذا بلغ الوالدان عندك أو أحدهما سن الكبر، وصارا عندك في آخر العمر بحال من الضعف والعجز، كما كنت عندهما في بدء حياتك، فعليك اتباع الواجبات الخمسة الآتية:

(الأول:)
فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌّ (أي: لا تسمعهما قولاً سيئاً فيه أدنى تبرم، ولا التأفف وهو التضجر والتألم الذي هو أدنى مراتب القول السيء، وذلك في أي حال، ولا سيما حال الضعف والكبر والعجز عن الكسب، لأن الحاجة إلى الإحسان حينئذ أشد وأولى وألزم، لذا خص حالة الكبر لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى البر، للضعف والكبر. روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله I: «رغم أنفه، رغم أنفه، رغم أنفه، قيل من يا رسول الله؟ قال: من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة» (Sahih Muslim).
قال البيضاوي: «والنهي عن ذلك (أف) يدل على المنع من سائر أنواع الايذاء قياساً بطريق الأولى» (Al-Baydhwani, 1418H).

(الثاني:)
وَلَا تَنْهَرُهُمَا (أي: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح).

(الثالث:)
وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا أي وقل لهما قولاً لنا طيباً حسناً مقروناً بالتوقير والتعظيم والحياء والأدب الجم. (الرابع:)
وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ (أي: تواضع لهما بفعلك، والمقصود منه المبالغة في التواضع وإلانة الجانِب، فإن خفض الجناح كناية عن فعل التواضع، وتشبيه بحال الطائر إذا ضم إليه فرخه، فيخفض له جناحه.

(الخامس:)
وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَزَقْنِي صَغِيرًا أي: اطلب لهما الرحمة من الله في حال كبرهما وعند وفاتهما. قال القفال رحمه الله تعالى: «إنه لم يقتصر في تعليم البر بالوالدين على تعليم الأقوال، بل أضاف إليه تعليم الأفعال، وهو أن يدعو

لهما بالرحمة، فيقول: رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَزَقْنِي صَغِيرًا» (Al-Zuhayli, 1418H).

ومن خلال هذه الجولة يتبين أن مسؤولية رعاية المسنين تقع أولاً على عاتق الولد قبل الحكومة والمجتمع، وهذا ما يؤيده قوله تعالى: (إِنَّمَا يَبْتَلِغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ) قال البيضاوي: «ومعنى (عِنْدَكَ) أن يكونا في كنفك وكفالتك» (Al-Baydhwani, 1418H). وقد أفاد صاحب الظلال عند تفسيره للآية الكريمة وهذا ما نصه: والكبر له جلاله، وضعف الكبر له إجاؤه وكلمة (عِنْدَكَ) تصور معنى الالتجاء والاحتماء في حالة الكبر والضعف (Sayyid Qutub, 1412H).

ثانياً: عند الحكومة الإسلامية

إن الحكومة لها دور في رعاية المسنين، وهذا الدور ما نلاحظه من خلال تأمل معاملة رسول الله I مع الشيوخ المسنين، وذلك باعتباره I رئيساً للدولة الإسلامية. فلقد كان في معاملته I مع هذه الفئة من الناس أثر واضح في بيان دور الحكومة في رعاية ظروفهم وتلبية حاجاتهم، قال رسول الله I: «أَمَرَنِي جِبْرِيلُ أَنْ أُقَدِّمَ الْأَكْبَرَ» (Al-Bazzar, 1997).

فتقدم الأَكْبَر في الحديث الشريف عام لكل مجالات الحياة، وهذا الفهم يؤيده حديثاً صحابياً الجليل أنس بن مالك Y حيث قال: «جَاءَ شَيْخٌ يُرِيدُ النَّبِيَّ I فَأَبْطَأَ الْقَوْمُ عَنْهُ أَنْ يُوسَّعُوا لَهُ»، فَقَالَ النَّبِيُّ I: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوقِّرْ كَبِيرَنَا» (Sunan Tirmizi).

والمستفاد من الحديث أنه يتعين أن يعامل كلا من الصغير والكبير بما يليق به، فيعطى الصغير حقه من الرفق به والرحمة والشفقة عليه، ويعطى الكبير حقه من الشرف والتوقير، قال الحافظ العراقي:

«فيه التوسعة للقادم على أهل المجلس إذا أمكن توسعهم له سيما إن كان ممن أمر بإكرامه من الشيوخ شيبا أو علما أو كونه كبير قوم» (Al-Manawi, 1356H).

وعلى منهج رعاية الشيوخ المسنين في حاجاتهم ذهب الخلفاء الراشدون، وفي كتب السير والتاريخ الإسلامي نماذج كثيرة شاهدة على هذا الأمر، ورد في الخراج لأبي يوسف أن عمر بن الخطاب لا مر بباب قوم وعليه سائل يسأل: شيخ كبير ضرب البصر، فضرب عضده من خلفه، وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي. قال: فما ألك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن. قال: فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباه؛ فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيته ثم نخذله عند الهرم» (Al-Kharraj, n.d.).

فهذه الوقائع وما شابهها تدل دلالة واضحة على مسؤولية الدولة في رعاية المسنين، والمستفاد من القصة أيضا أن سيدنا عمر لا فوض أمر الشيخ الكبير في السن إلى بيت مال المسلمين.

ثالثا: رعاية المسنين مسؤولية المجتمع

والمجتمع الإسلامي مطالب برعاية المسنين، إذ الإسلام يدعو إلى التكافل الاجتماعي بين بني البشر كلهم، ولقد جرت سنة الله I أن خلق الناس محتاجين إلى بعضهم بعضا، وسخر بعضهم لخدمة بعض، ولا يستطيع أحدهم أن يعيش في عزلة عن غيره، بل لا بد من وجود التعاون والتكافل بينهم في شتى مجال الحياة. وهذا التكافل الاجتماعي إذا كان ضرورا اجتماعيا

ومطالب لمن له مقدرة على القيام ببعض الأمور ولا يستطيع القيام بمهام أخرى، فالمستضعفون العاجزون من باب أولى أن يستفيدوا من هذا الباب، قال رسول الله I: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلَمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (Sahih al-Bukhari).

فتفريج كرب المسنين داخل في باب التكافل الاجتماعي، وهم أولى من غيرهم لضعفهم واحتياجهم إلى المساعدة.

مجالات رعاية المسنين في الإسلام

مجالات رعاية الشيوخ المسنين في الإسلام باب واسع جدا، ويصعب على الباحث حصره، والذي يمكن أن نشير إليه هو أن الشريعة الإسلامية التي جاء بها كتاب الله تعالى مدارها على حفظ الدين، والنفس، والعقل، والتسبب، والعرض، والمال، وبالتالي رعاية المسنين شامل لكل ما يؤدي إلى تحقيق هذه الضروريات. إضافة إلى ذلك فإن الشريعة الإسلامية خصت الشيوخ ببعض الأحكام، كأمثال أحكام الصلاة، والصيام والحج وغيرها من الأحكام، فالواجب على من يقوم برعاية المسنين في منظور الإسلام أن يعلمهم الأحكام التي تخصهم.

فهذه هي نظرة عامة لرعاية المسنين من منظور الإسلام، والذي يبرهن على أن القرآن الكريم حلّ جميع المشكلات العالمية، ولم يترك جانبا من الجوانب التي يحتاجها البشر في الدنيا والآخرة إلا وضع لها القواعد، وهدى إليها بأقوم الطرق وأعد لها. وصدق الله العظيم حيث قال: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) (Al-Qur'an: 17:9).

ومع أن الإسلام حفيظ بالقواعد العامة والخاصة التي سبق ذكرها في رعاية المسنين نجد في عصرنا الراهن أن بعض بلدان المسلمين يعانون بمشكلة عدم رعاية المسنين، وعلى هذا أصبح معظم المسنين يعيشون في مشاكل اجتماعية، وصحية، ونفسية، وغيرها الكثير،

والسبب في ذلك عدم المبالاة أو قلة اهتمام المجتمع بهم. وهذه المبالاة أو قلة الاهتمام برعاية المسنين نتيجة لعدة أسباب، منها:

أولاً: الجهل بتعاليم الإسلام عامة وتعاليم رعاية المسنين خاصة

لقد أشرنا في هذه الدراسة إلى أن الشريعة الإسلامية قد اعتنت واهتمت برعاية المسنين عناية فائقة، بل جعلت رعايتهم صورة من صور إجلال وإكرام الله I، ولكن كم من المجتمعات المسلمة المعاصرة يدركون قمة هذه التعاليم فضلاً عن تطبيقها في حياتهم وتعاملهم مع المسنين؟ وللقضاء على هذه المشكلة يرى الباحث أنه لا بد من تزويد مناهجنا التعليمية بالتعاليم الإسلامية ككل، والتركيز بما يتعلق بالوالدين والمسنين، وذلك ببيان منزلة وفضائل رعاية الوالدين، وما يترتب على عقوقهما، وخاصة عند الكبر كما خص الله تبارك وتعالى ذلك في القرآن الكريم.

ثانياً: المشاكل الاقتصادية

معظم المجتمعات المسلمة اليوم يواجهون المشاكل الاقتصادية في حياتهم، -وهذا يحتاج إلى دراسة خاصة لتقدم الحلول المناسبة له- المشكلة الاقتصادية جعلت المجتمعات المسلمة مضطرة إلى بحث عن عمل لسدها، فالآباء والأمهات في هذا الأمر سواء. ونحن لا ننكر خروج المرأة إلى العمل على شروطه وآدابه كما حدث ذلك لبنات شعيب II.

وفي الوقت نفسه لا بد من الاعتراف أيضاً على أن الأم لها دور أساسي في رعاية البيت، وهي مسؤولة أمام الله بهذه المهمة كما أخبر الرسول I: «... والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها...» (Sahih Bukhari). قال القسطلاني: "ورعاية المرأة في بيت زوجها بحسن التدبير في أمر بيته وأولاده وخدمته وأضيافه» (Al-Qastalani, 1323H). ومن حسن التدبير رعاية المسنين إذا وجدوا.

إن الواقع المعاصر يرهن على أن خروج المرأة إلى العمل يؤدي إلى عدم قيام المرأة المعاصرة بواجبها الأساسية في رعاية بيتها، لأنها طول النهار مطالبة بإتقان مسؤوليتها في مكان عملها، وهذا الأمر يقتضي استعمال مهارة عقلية وبدنية، وبالتالي، تعود إلى بيتها وهي متعبة، وظروفها لا تسمح لها بقيام بواجبها المنزلية على أحسن حال، مما يفتح باباً لإهمال رعاية البيت وأهله، ومنهم المسنون.

وللقضاء على هذه المشكلة ينبغي التوازن بين عمل المرأة المعاصرة خارج بيتها لاكتساب الأجرة وبقائها في بيتها للقيام بمسؤوليتها الأساسية المتمثلة في رعاية بيتها.

وفي الوقت نفسه، تبين من خلال هذه الجولة أن للمرأة دور فعال ومسؤولية كبيرة في رعاية المسنين، خاصة إذا كان المسن من والديها، وهذا ما فقده ابنتا شعيب، فقامتا بفعل ما كان يفعله أبوهما بدلا منه بسبب شيخوخته، وبلا أدنى شك، هذا من باب مراعاة وتعامل حسن مع المسنين، قال تعالى:

(وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْكُفُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) (Al-Qur'an: 28: 23)

والجددير بالذكر هنا، أن رعاية المسنين باب واسع جدا ولا يقتصر على رعاية الوالدين فقط، بل مسؤولية رعاية المسنين تشمل والدي الزوج والزوجة على حد سواء، فكل من الزوجين مطالب برعاية والدي غيره، وهذا ما يلاحظ عند تدبر قصة موسى وصهره شعيب، قال تعالى: (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) (Al-Qur'an: 28: 26). قال صاحب الظلال عند تفسيره للآية الكريمة: "فهي تشير على أبيها باستئجاره ليكفيها وأختها مؤنة العمل والاحتكاك والتبذل" (SayyidQutub, 1412H). ويقول طنطاوي: "قالت لأبيها بوضوح واستقامة

قصد- شأن المرأة السليمة الفطرة النقية العرض القوية الشخصية- يا أبت استأجر هذا الرجل الغريب ليكيفنا تعب الرعي، ومشقة العمل خارج البيت» (Tantawi, 1998).

فهذا الكلام يدل على أن موسى U قام بعمل امرأتين من السقي والحفاظ على ماشية الشيخ الكبير، والقيام عليها في إصلاحها وصلاحها، وغيره من الأعمال في خدمة أهل بيت الشيخ الكبير الهرم. وهذا ما يؤكد القرآن الكريم حينما قال الشيخ الكبير استجابة لاقتراح ابنته يا موسى إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين، بشرط أن تعمل أجيرا عندي لرعي غنمي ثماني سنين، فإن أتممت عشرة فهذا الإتمام من عندك على سبيل التفاضل والتكرم، قال تعالى: (قَالَ إِنْ أُريدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجْحَ فَإِنْ أتممتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُريدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (Al-Qur'an: 28: 27).

وقبل موسى عرض الشيخ الكبير ورد عليه قائلاً: (قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا تَقُولُ وَكِيلٌ (Al-Qur'an: 28: 28) قال طنطاوي: "المتأمل في هذه الآيات الكريمة، يرى فيها بجلاء ووضوح، ما جبل عليه موسى U من صبر على بأساء الحياة وضرائها ومن همة عالية تحمله في كل موطن على إعانة المحتاج، ومن طبيعة إيجابية تجعله دائما لا يقف أمام ما لا يرضيه مكتوف اليدين» (Tan-tawi, 1998).

والمستفاد من تعليق الدكتور طنطاوي أن سيدنا موسى U كان ذا همة عالية على إعانة كل محتاج، وهذا دفعه إلى رعاية صهره المسن، مما يدل على أن رعاية المسنين أمر مشترك بين الرجل والمرأة، ولا يختص به بالمرأة كما هو شائع في بعض المجتمعات في العالم الإسلامي المعاصر.

وهناك أدلة كثيرة في القرآن والسنة تدل دلالة واضحة على هذا الأمر، منها قوله تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (Al-Qur'an: 17: 23) فالتأمل لقوله تعالى: (إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا) يجد أن الضمير في كلمة (عِنْدَكَ) موجه إلى الرجل، وهذا من باب التغليب، وعلى هذا يكون الرجل مطالب برعاية المسنين كما هو الحال عند المرأة، بل هو مقدم في هذا الواجب.

وأما الأحاديث النبوية فالكتب الحديثية متضافرة بالنصوص الحاثثة على هذا العمل الجليل، منها قوله r: «... وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ...» (Sahih al-Bukhari). فرعاية الرجل لأهل بيته يشمل المسنين أيضا. وروى أبو داود في سننه أنه جاء رجل إلى رسول الله r فقال: جئتُ أبايعك على الهجرة، وتركتُ أبويَّ يَبْكِيَانِ، فقال: «ارْجِعْ عَلَيْهِمَا فَأُضِحْ كُهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا» (Abu Dawud). فهذه النصوص وغيرها تبين مسؤولية الرجل في رعاية أبويه وخاصة عند كبر السن.

ثالثا: إهمال بعض المسنين بتربية أبنائهم وقت شبابهم

إن المسنين مروا بمراحل متعددة قبل هذه المرحلة، فهم كانوا شبابا قبل ذلك، وكان على عاتقهم مسؤولية هامة في تربية أبنائهم ومجتمعاتهم، فمنهم من قاموا بها خير قيام، ومنهم من أهملوا فيها، ونتيجة إهمال الآباء في تربية أبنائهم تربية إسلامية صحيحة أدى إلى عدم قيام الأولاد برعاية آبائهم خاصة عند الكبر لأنهم ما عندهم استعدادات نفسية ومعنوية للقيام بمسؤولية رعايتهم.

ولعل هذا تندرج تحت القاعدة العامة والسنن الكونية المتمثلة في قوله تعالى: (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا... (Al-

والوالدين وخاصة عند الكبر، وهذه الدور تلعب دورا ما في رعاية وتربية المسنين مما يخفف لهم حرارة الآلام. كما أنه يرى الباحث وجوب صبغة هذه الدور صبغة إسلامية، وذلك بإضافة البرامج التي تساعد المسنين في معرفة إسلامهم وتطبيقه في حياتهم عملا بوصية إبراهيم (u) إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ (Al-Qur'an: 2: 132) وعملا بقوله تعالى: (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ (Al-Qur'an: 3: 102) وقوله تعالى: (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) (Al-Qur'an: 15 : 99).

ولعل هذه القصة تؤيد ما قلناه، روي أن رجلا جاء إلى عمر بن الخطاب ي يشكو إليه عقوق ابنه، فأحضر عمر الولد وأنبه على عقوقه لأبيه، ونسيانه لحقوقه، فقال الولد: يا أمير المؤمنين أليس للولد حقوق على أبيه؟ قال: بلى، قال: فما هي يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: أن ينتقي أمه، ويحسن اسمه، ويعلمه الكتاب (أي القرآن)، قال الولد: يا أمير المؤمنين إن أبي لم يفعل شيئا من ذلك، أما أمي فإنها ونجية كانت لمجوسي، وقد سماني جعلا (أي خنفساء)، ولم يعلمني من الكتاب حرفاً واحداً. فالتفت عمر إلى الرجل وقال له: «جئت إلي تشكو عقوق ابنك، وقد عققته قبل أن يعقك، وأسأت إليه قبل أن يسيء إليك؟!» (MultaqaAhl al-Tafsir).

وللقضاء على هذه الظاهرة في المجتمعات المعاصرة ينبغي على الأمة الإسلامية أن يركزوا في تربية أبنائهم تربية إسلامية صحيحة؛ لأنها كاملة وشاملة وكافية لاستعداد الناس في تحمل مسؤولياتهم.

هذه هي أهم الأسباب التي تؤدي إلى إهمال بعض المجتمعات الإسلامية برعاية المسنين، وهذه الأسباب جعلت معظم أبناء المسلمين يرسلون آباءهم وأمهاهم عند كبر السن إلى دور خاص لرعاية المسنين وتربيتهم. هذا، حسب معرفة الباحث لم يجد في التاريخ الإسلامي مثل هذه الدور، ولكن لا ينكر وجودها وفضلها، خاصة في هذا الزمان الذي أصبح بعض الأولاد لا يباليون برعاية

والوالدين وخاصة عند الكبر، وهذه الدور تلعب دورا ما في رعاية وتربية المسنين مما يخفف لهم حرارة الآلام. كما أنه يرى الباحث وجوب صبغة هذه الدور صبغة إسلامية، وذلك بإضافة البرامج التي تساعد المسنين في معرفة إسلامهم وتطبيقه في حياتهم عملا بوصية إبراهيم (u) إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ (Al-Qur'an: 2: 132) وعملا بقوله تعالى: (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ (Al-Qur'an: 3: 102) وقوله تعالى: (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) (Al-Qur'an: 15 : 99).

مع ذلك كله، يرى الباحث أن الأفضل والأصلح أن يقوم الولد بنفسه برعاية والديه خاصة عند الكبر مهما كانت الظروف، وذلك لأسباب عدة منها:

أ- الأمر الإلهي بأمر الولد بمصاحبة والديه خاصة عند الكبر، وهذا يلاحظ في قوله تعالى: (إِذَا بَلَغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا) قال البيضاوي: "ومعنى (عِنْدَكَ) أن يكونا في كنفك وكفالتك» (Al-Baydhawi, 1418H).

ب- محبة الوالدين وحنانهما لأولادهم وخاصة عند الكبر تقتضي القرب والمعاشة معهم، وهذا ما فقاهه إخوة يوسف فقالوا له: (يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً) (Al-Qur'an: 12: 78) فهم لا يستشفعون له، وإنما يستشفعون لأبيه الذي بلغ من الكبر عتياً، فلا يحتمل هذه الصدمة التي تصدمه بفقد ابنه هذا (Al-Khatib, n.d.).

ت- رعاية الوالدين عند الكبر والإحسان إليهما سبب لنيل الأجر العظيم عند الله تعالى، وهذا يفهم عند العمل بالمفهوم المخالف للحديث النبوي الذي يبين خسارة الولد إذا لم يحسن رعاية والديه، قال رسول الله: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ ثُمَّ أَنْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُعْفَرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ

أَذْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الْكَبِيرَ فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الْجَنَّةَ» (Al-Shaybani, 1995).

ث- غالباً يكون تأسيس دور رعاية المسنين على أساس تجاري، ومعظم العمال فيها يعملون باعتبارها محلاً للكسب، فشتان بين من يقوم برعاية والده المسن ابتغاء مرضاة الله ومن يقوم بنفس المهمة على أنه عمل تجاري، (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ) (Al-Qur'an: 9:109).

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، 1420هـ/2000م).

أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، (دمشق: دار الثقافة العربية، ط1، 1412هـ/1992م).

أبو القاسم الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، (القاهرة: دار الحرمين، د.ط، د.ت).

أبو بكر محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن عبدوئيه البغدادي الشافعي البرزاز، كتاب الفوائد، تحقيق: حلمي كامل أسعد عبد الهادي، (الرياض: دار ابن الجوزي، ط1، 1417هـ/1997م).

أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق:

شعيب الأرنؤوط، (د.م: دار الرسالة العالمية، ط1، 1430هـ/2009م).

أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط2، 1384هـ/1964م).

أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، الخراج، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، سعد حسن محمد، (القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث، د.ط، د.ت).

البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، 1418هـ).

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط3، 1424هـ/2003م).

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي، شعب الإيمان، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، (الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط1، 1423هـ/2003م).

Tirmidhi, M. B. (1998), Sunan al-Tirmidhi, achieve: Bashir Awad Known, Dar Muslim West, Beirut.

الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، د.ط، 1998م).

Razi, Abu Abdullah Muhammad ibn Umar Bin Hassan, (1420). Great Interpretation, Dar revival of Arab heritage, Beirut.

الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن، التفسير الكبير، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط3، 1420هـ).

Sayyid Qutb, (1412). In The shadows

of the Qur'an, Dar Al Shorouk, Cairo.
سيد قطب، في ظلال القرآن، (القاهرة: دار الشروق،
17 ط، -1412هـ)

مطابع أخبار اليوم، د.ط، د.ت)

الشييباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل مسند
الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد شاكر، (القاهرة:
دار الحديث، 1 ط، -1416هـ/1995م)
عبد الكريم يونس الخطيب، التفسير القرآني للقرآن،
(القاهرة: دار الفكر العربي، د.ط، د.ت)

مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد
عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط،
د.ت)

المنافسي، زين الدين محمد فيض القدير شرح الجامع
الصغير، (مصر: المكتبة التجارية الكبرى، 1 ط،
-1356هـ)

القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك
إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، (مصر: المطبعة
الكبرى الأميرية، 7 ط، -1323هـ)

وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة
والشريعة والمنهج، (دمشق: دار الفكر المعاصر، 2 ط،
-1418هـ)

محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، عون المعبود
شرح سنن أبي داود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2،
-1415هـ)

محمد بن إبراهيم سعيد كعباش، نفحات الرحمن في
رياض القرآن، (الجزائر: المطبعة العربية، د.ط،
-1435هـ/2013م)

محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، صحيح البخاري،
تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، (د.م: دار طوق
النجاة، 1 ط، -1422هـ)

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري،
الأدب المفرد، حققه وقابله على أصوله: سمير بن أمين
الزهيري، (الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،
-1419هـ/1998م)

محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن
الكريم، (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر
والتوزيع، 1 ط، م1998)

محمد علي الصابوني، قبس من نور القرآن الكريم،
(بيروت: دار القرآن الكريم، 5 ط، -1420هـ/2000م)
محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، (القاهرة:

